

(المحاضرة الخامسة)

المبحث الرابع

ما موقفنا من المدارس الكلامية الإسلامية

إن المدارس الكلامية الإسلامية التي سنتحدث عنها منسوبة إلى الإسلام دَاخلةً في المِلَّة ، ولذا تُسمَّى المدارس الكلامية الإسلامية ، وهذا يعني أنه لا يجوز إخراج أي منها عن حظيرة الإسلام ، ولا يوجد في النِّقاة من أئمة المسلمين مَنْ حَكَمَ على أي من هذه المدارس بالكفر .

أولاً: الدليل النقلى :

ومُستند الأئمة في ذلك ما صحَّ عن رسول الله ﷺ مِنْ أَنَّ مَنْ لَقِيَ اللهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ . مِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّى رَسُولُ اللهِ ، لا يَلْقَى اللهُ عَبْدٌ يُؤْمِنُ بِهِمَا إِلاَّ حُجِبَتْ عَنْهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)^(١) ، وَحَدِيثُ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ ﷺ قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لا يَقُولُهَا)^(٢) أَحَدٌ صَادِقًا إِلاَّ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ) ، وَحَدِيثُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)^(٣) .

ثانياً : القاعدة الأصولية

تقول: كل تأويل لنص من القرآن الكريم أو الحديث مهما كان بعيداً لا يزج الإنسان في الكفر ، والمدارس الكلامية التي ظهرت ابتعد بعضها عن المنهج الصحيح عن طريق تبني منهج التأويل ، ولكن علماء الشريعة الإسلامية لم يكفروا أحداً منهم .

ثالثاً: الموقف التاريخي من المدارس الكلامية

لم تكفر الدولة المسلمة أياً من المدارس الكلامية التي ظهرت فيها ، بل وقفت منها موقف الحوار

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ، باب جَمْعُ زَادِ النَّاسِ إِذَا فَنِيَ زَادُهُمْ ، وَقَسَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ بَيْنَ جَمِيعِهِمْ ، برقم: (٨٧٤٢) .

(٢) أي الشهادتين كما بين ذلك سبب ورود الحديث ، عن أَنَسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عْتَبَانُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّهُ عَمِيَ ، فَأَرْسَلَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: تَعَالَ فَحُطَّ لِي مَسْجِدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَجَاءَ قَوْمُهُ وَتَغَيَّبَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مَالِكُ بْنُ الدُّخَشِيمِ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّهُ وَإِنَّهُ ، يَقَعُونَ فِيهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَنَّى رَسُولُ اللهِ؟) قَالُوا: إِنَّمَا يَقُولُهَا مُتَعَوِّدًا ، قَالَ: ... الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي السَّنَنِ الْكُبْرَى ، بَابُ مَا يَقُولُ عِنْدَ الْمَوْتِ ، برقم: (١٠٨٧٨) . وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ، (٢٠ / ١٨٤) برقم: (١٢٧٨٨) . وَأَصْلُهُ فِي الصَّحِيحِينَ بِدُونِ الْقِصَّةِ ، وَلَفْظُهُ: (مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ، بابٌ فِي التَّلْفِينِ ، برقم: (٣١١٦) . وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ ، (٣٦ / ٣٢٤) برقم: (٢١٩٩٨) . وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (٣ / ٢٤٧) .

والمناقشة ، وتاريخ العصر الأموي والعباسي مليءً بأخبار تلك المناقشات التي كانت تجري في كثيرٍ من الأحيان بإشراف الخليفة ، إذ كان يدعو الفرقاء للمناقشة ويستمع إلى السّجال بينهم ، ولم يُعرف أن نقاشاً تطوّر ثم تحوّل إلى مهاترة بالكلام أو مُجارحةٍ باللسان ، وإنما كانت المناقشات علمية منضبطة بقواعد العلم النظري .

وهناك بعض الكتب التي جمعت هذه المُناقشات والحوارات في ذلك العصر ، ككتاب "الحيدة" ، فيه مجالس من المناقشات الممتعة بين الذين يقولون: إن كلام الله عز وجل مخلوق ، وبين الجمهور الذين يقولون: إن كلام الله تعالى قديم .

وهكذا فإنّ هذه المدارس الكلامية سادت ثم بادت عن طريق الحوار ، ولو أنها قُوِّلت بسلاح العنف والتكفير لانتهى الأمر إلى تمزّق الدولة المسلمة .

إذن فالحقائق الإسلامية لها جذور مُمتدة إلى كيان الإنسان في كِلا مَظهرَيه النفسي من حيث هو دين الفطرة ، أي دينٌ يتفق مع أصول ما فُطر عليه الإنسان من تطلّعاتٍ وأشواق ، كما يتفق مع موازين العقل والمنطق وأحكامهما .